مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 775 - 789 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تعدد الأصوات الروائية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر في روايات محمد مفلاح وعبد المالك مرتاض

The polyphony of Narrative Voices in The Contemporary Algerian Novelistic Discourse of Mohamed Meflah and Abdelmalek Mortad's Novels

د. أحمد زاوي

ahmed zaoui

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة وهران (الجزائر)

الدراسات في التراث الجزائري. وهران.

University of Oran 1 Ahmed Ben Bella Oran (Algeria)

ahmed31zaoui@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/06/29	تاريخ القبول:2021/10/24	تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص البحث

يعالج المقال قضية أدبية ونقدية تتصل بالخطاب الروائي الجزائري الحديث والمعاصر، وقد ركزنا البحث من خلال بعض الأعمال الروائية لمحمد مفلاح وعبد الملك مرتاض. ومن خلال سبر أهم الأصوات المتعددة، وجدنا الأصوات السياسية والصوفية والاجتماعية وصوت المرأة، والصوت الديني، وصوت الشاعر و غير ذلك.

وتعرفنا على الكثير من وظائف التعدد الصوتي عبر الخطاب الروائي الجزائري ومنها:

ـ تمكين الشخصيات السردية من التعبير عن آرائها وأفكارها بكل حرية، خصوصا لما يوكل إليها المؤلف بعض الأدوار فتؤديها أحسن أداء.

ـ جعل الكاتب الرواية حلبة حرة تتصارع فيها هذه الأصوات، وتعبر عن مواقفها الكثيرة وفلسفاتها وإيديولوجياتها المختلفة، مما يؤدي إلى توضيح الرؤية للمتلقي.

ـ جعل الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي يكتسح الخطاب الروائي، ويجعل هذه الأصوات المختلفة تعبر عن ذواتها بكل حرية.

الكلمات المفتاح : صوت، تعدد الأصوات، سرد، حوار، حجاج.

Abstract :

This article deals with a literary and criticism issue, related to the Modern and Contemporary Algerian Novelistic Discourse. We focused the research on some novelistic works of Mohamed Meflah and AbdelmaledMourtadh. Through

exploring the major polyphonies, we found political, mystical, social voices, in addition to women voices, religious voices, poets' voices, etc. Moreover, we identified several polyphony functions through the Algerian novelistic discourse, such as:

- Allowing the narrative characters to express their opinions and ideas with freedom;
- especially when the author assigns them some roles that they play perfectly;
- Making the novel, by the author, an arena where voices fight and express their multiple positions, their philosophies, and different ideologies, which leads to heighten
- visibility for the recipient;
- Making the dialogue, both internal and external, dominate the novelistic discourse;
- which allows these different voices to express themselves freely.

Keywords:voice; polyphony; narration; dialog; argumentation.

1. مقدمة:

الرواية حلبة اجتماعية كبيرة، تتصارع فيها مختلف الثقافات والفلسفات والأفكار، وهي فضاء رحب لمجموعة من الأصوات المختلفة. وقد يعبر كل صوت عن فئة اجتماعية معينة.

والخطاب الروائي عموما، غالبا ما يسعى صاحبه عبر السارد لنشر فكرة ما، وحث القارئ لتقبل تلك الفكرة والاقتناع بها؛ ولذلك يسعى المؤلف بكل الطرق لجعل خطابه حجاجيا بالدرجة الأولى وهدفه دائما هو التأثير في متلقي النص من خلال دعوته إلى فكرة ما أو دحض ومحاربة فكرة أخرى بالأدلة المختلفة. والإشكالية المطروحة في هذا المقال هي:

ما الهدف من تتعدد الأصوات –على اختلافها– في الخطاب الروائية؟ وماهي وظائف هذا التعدد الصوتي؟

لقد كانت الرواية ومازالت فضاء اجتماعيا، تنوعت فيه الايديولوجيات وتعددت فيه الفلسفات والأفكار والديانات والاعتقادات. ومهما تعددت مواضيع الرواية واختلفت أنواعها، فهي دائما تؤيد بعض الأفكار على حساب أخرى، فمثلا لو كانت رواية بوليسية أو اجتماعية أو تاريخية أو حتى رواية السيرة الذاتية، ففي هذه الأخيرة يسعى الروائي لبيان معتقده وفلسفته في الحياة ورأيه، وهو بهذا يرسل أصواتا عبر خطابه الروائي. وغالبا ما تكون أغلب هذه الأصوات ذات نزعة اجتماعية بامتياز؛ خصوصا رواية المرحلة

الواقعية، حيث أصبح الخطاب الروائي يعبر عن القضايا الاجتماعية والفكرية، كما يعبر عن صراع الطبقات الاجتماعية.

ولقد اعتمد الخطاب الروائي الجزائري المعاصر مثل سائر الخطابات الروائية العربية والأجنبية على الكثير من الأصوات المختلفة ومن هذه الأصوات.

2. الصوت الديني: أو صوت العقيدة؛ ويتجلى غالبا من خلال الآيات القرآنية الكثيرة التي يستشهد بها السارد للإقناع ومن ذلك قول السارد في حفيد المنفي : "ثم تحدث عن حبس المداح في الماضي القريب بسبب إنشاده الأمداح الدينية والمغازي البطولية في الأسواق الأسبوعية"[1]، ومن أمثلة ذلك قول السارد على لسان إحدى الشخصيات في رواية (وشيء آخر...) لعبد الملك مرتاض: " عجبت سارة من قول خناتيتوس ...ولكنها لم تجادلها؛ فهي معلمتها ولابد من احترامها، وان اختلفت معها، رأيا..."[2].

ويجسد هذا السرد النزعة الاجتماعية وهدفه تعليم قيم أخلاقية ومنها عدم المجادلة، واحترام المعلم. ومن هنا تتمظهر الوظيفة التعليمية لبعض القيم التي اهتزت في بعض المجتمعات العربية.

أما صراع الطبقات الاجتماعية فيجسده النقد الاجتماعي من خلال الخطابات الروائية سواء كان سردا أو حوارا بين الشخصيات الفاعلة في القصة الطويلة ومن أمثلة ذلك حوار الشخصيات الذي عبر عنه السارد في رواية (همس الرمادي) لمحمد مفلاح: " قال أحمد المشاي وهو يبتسم لناصر الربيعي:

ـ قل لي يا ناصر، هل أنتم جادون في محاسبة الفاسدين؟

ـ سنطبق الشريعة، وسترى كيف سيسود العدل إذا ما فاز حزبنا. سنشرع فورا في في تطبيق مبدأ ' من أين لك هذا؟'

حرك جعفر النوري شاشيته، ثم خاطب أحمد المشاي قائلا بتأسف:

ـ آه.. لو كان بومدين حيا لما حدثت هذه الفوضى، ثم التفت نحو ثابت اللحام وسأله باهتمام:

ـ ما رأي رجال الدين في فوائد القروض البنكية؟

قال ثابت اللحام بمرارة: كلكم تعيشون بأموال الربا. لقد استمعت باهتمام كبير إلى مشايخ فتاوى العصر قبل الإقدام على الاقتراض من البنك .

ثم تابع وهو يحك قفاه: أتمنى لو يقرضني البنك مالا لأشتري به آلة كاشفة عن الكذب والنفاق..."[3]

ويجسد هذا الحوار الروائي جزءا من صراع أفراد المجتمع وطبقاته، ويخص فترة التسعينات وما قبلها عندما تعددت الأحزاب السياسية في الجزائر، ويهدف الكاتب من خلال حوار شخصياته إلى نقد اجتماعي وسياسي للصراع الذي عرفته الجزائر حول من سيحكم البلاد، ويعبر عن صراع الأحزاب السياسية وصراع الطبقات الاجتماعية الحاكمة.

ويرى سعيد يقطين في مؤلفه (انفتاح النص الروائي) إن أي نص كيفما كان نوعه يتم إنتاجه ضمن بنية اجتماعية معينة محددة، وتكمن انتاجيته في كون التفاعل يحصل معه في إطار البنية نفسها، وبانعدام هذا التفاعل تنعدم إنتاجية النص فالكاتب ينتج نصوصه ضمن بنيات اجتماعية وثقافية وتربوية.

ويبدو من خلال هذا النص الروائي صوت العقيدة الإسلامية واضحا، وقد ارتبط بالمقاومة الوطنية ضد الفرنسيين الغزاة. فشخصية الشيخ هو رجل الدين الذي يعلم القرآن الكريم في الكتاب، وله دور في الجهاد، حيث كان موقفه واضحا من المداح، الذي حبس في السجن بسبب مدحه لأغاني ومدائح دينية وإسلامية ومن وظائفها بث الحماسة في نفوس الثوار وصفوف الشعب الجزائري.

وقد كانت شخصية بوزيان (الحصاد) في رواية (حفيد المنفي) صوتا دينيا، ينادي بالعقيدة الإسلامية، ويربطها بالجهاد ضد الفرنسيين. ومن ذلك قول السارد:" بوزيان الحصاد هو من حث عبد القادر على تعليم بصافي بالمدرسة، وذكره بالحديث النبوي الآتي:(من تعلم لغة قوم فقد أمن مكرهم"، ثم أضاف:"– سنستغل اللغة الفرنسية لمنافسة ومقاومة المغتصبين، وبصافي طفل ذكي يستطيع أن يجمع بين علوم الجامع ومعارف المدرسة "[4] .

ويبدو إن توظيف الآيات القرآنية، واستحضار الأحاديث النبوية الشريفة واضح من قبل الشخصيات الروائية مثل بوزيان الحصاد وبصافي وغيرهما. ولهذا دلالة واضحة على الصوت الديني الموجود بكثرة في الخطابات الروائية الجزائرية المعاصرة لدى محمد مفلاح وعبد الملك مرتاض وغيرهما كثير. والرواية دون غيرها من الأنواع الأدبية التي تتسع لأنماط متعددة من اللغات المختلفة[5].

وقد يمتزج هذا الصوت بالجانب السياسي؛ حيث تعبر الشخصيات الدينية عن رفض المحتلين، فكانت تسهم في الدفاع عن الوطن، وتبث الحماسة وتنشر الوعي السياسي والديني في صفوف الشعب الجزائري آنذاك.

ويرى أبو القاسم سعد الله في كتابه (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) أن الحديث عن الأدب الجزائري يشبه إلى حد كبير كل حديث عن الأدب العربي ...حيث عاشا نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية...فكان الاحتلال الفرنسي عامل تخريب وبعثرة وتحطيم لكل القيم الفكرية ... والتسلط وإزالة المعالم القومية[6].

ونستخلص مما سبق، إن الكتابات الروائية الجزائرية الحديثة قد أرخت لتلك الفترة الاستعمارية الحالكة، حيث نجد الروائي يوظف شخصيات مختلفة كلها تعبر عن كره المحتل الفرنسي الأجنبي، كما تؤدي وظائف أخرى على مستوى السرد ومنها الدعوة إلى حب الوطن و الدفاع عن الدين الإسلامي وبناء المجتمع وعدم نسيان الثورة المباركة والفخر بالشهداء والمجاهدين.

وينطلق الصوت الديني في مقطع روائي آخر من خلال قول السارد " جلس عند رأس المحتضر. وضع الجيلالي الطالب يديه على قدم الرجل اليمنى، ثم التفت إلى بغداد وقال له: ـ إنه في سكرات الموت. ... وضع الجيلالي الطالب يمناه على جبين المحتضر، ثم على عينين وقال بخشوع:ـ شهد يا سي عبد القادر. شهد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعبد القادر عبدك وابن أمتك زبيدة "[7].

والغرض من هذا الصوت هو ترسيخ العقيدة الإسلامية السمحة؛ حيث كانت الشخصية تلقن المحتضر شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهي في سكرات الموت، وكان يردد كلمات دينية منها (شهد، ابن عبدك، ابن أمتك) وغيرها. وهذا كله يدل على الشخصية الدينية المسلمة. والأمر لا يقف هنا بل، يمكن أن يكون ذلك الصوت يواجه الملاحدة، ودعاة الوثنية، ومن ينكرون وجود الله في هذا الزمان؛ فالرواية خطاب اجتماعي يمكن أن يترجم إلى لغات كثيرة، و يخترق الحدود الجغرافية.

ويرى ميشال بوتور " إن الروائي يبني شخوصه شاء أم أبى، وعلم ذلك أو جهل انطلاقا من حياته الخاصة، وأن أبطاله ما هم إلا أقنعة يروي من ورائهم قصته "[8]، ففي الخطاب الروائي الجزائري لم يخرج الكتاب عن الواقع الجزائري حتى أثناء تعدد الأصوات السياسية والدينية؛ لأنها منبثقة عن التفاعل الاجتماعي.

وقد يمتزج الصوت الديني بصوت السياسي، حيث تعبر الشخصية عن الدينية عن رفض المحتلين، وتدافع عن الوطن بأفكارها أثناء تفاعلها مع بقية الشخصيات الروائية أو تدعو إلى ذلك بصفة معلنة أو غير معلنة. وذلك من خلال بث الحماسة ونشر الوعي الديني والسياسي. وهذا ما يظهر في رواية (حفيد المنفي)؛ حيث نجد السارد يقول:" دعت غالية الله بإخلاص: ـ يارب ارحمنا وانصرنا على الأعداء"[9].

وقول السارد في موضع آخر من الرواية: " انهزمت فرنسا في جبل (مناور)، وقضى المجاهدون على عدد لا يحصى من عساكر العدو... بخدة ولد الشيخ الزيتوني ألقى قنبلة على شاحنة عساكر العدو وهي في طريقها إلى مدينة (واد الأبطال). ثم التحق بجبال (صدامة) "[10].

ونلحظ من خلال هذا المقطع الروائي أن السارد يخبرنا ببعض الأحداث التاريخية، ويصف البطل ويخبر عن انهزام فرنسا في جبل المناور، ويبين كيف أن بطله ألقى القنبلة، والسارد يعرف حتى وجهة القافلة العسكرية، وكأنه كان حاضرا معهم آنذاك.

"فالرواية هي أشبه بمنظار يضعنا خلفه الروائي لنرى بوضوح ما هو غامض التفاصيل أو بعيد عن مرمى نظرنا"[11]، والسارد عليم في هذه الرواية، وقد يكون شخصية واقعية حضرت المعركة وأخبرت الكاتب ببعض تلك التفاصيل، فوضفها في هذا الخطاب الروائي.

2 صوت الرجل الصوفي:

لاشك إن المذهب الصوفي صوت ديني عالمي معروف منذ قديم الزمان، ويتردد هذا الصوت في الأدب منذ القديم؛ فنجده في الشعر العربي والجزائري كثيرا. وهو يدافع عن هذه الفرقة بأساليب مختلفة. كما نجده في الخطابات الروائية الكثيرة. وهدفه ترسيخ هذا المذهب الديني في نفوس القراء، ونشر بعض المبادئ الدينية على ألسنة الشخصيات والسراد أثناء السرد وأثناء الحوار والتفاعل الاجتماعي بين المتكلمين في الرواية.

والرواية خطاب مفتوح يمثل حلبة كبيرة تتصارع فيها الأصوات المختلفة، وينتج عنها التعدد اللساني في شكله الأكثر وضوحا؛ و يرى باختين أن أي كلمة تنزع إلى دلالة اجتماعية، وإلى الانتشار بوصفها لغة خاصة للتعدد اللساني اللغوي وتعددية الصوت[12].

ويستفاد من هذا العرض، إن الخطاب الروائي مركب ومشكل أساسا من مجموعة من اللغات، وأغلبها ذا نزعات اجتماعية محضة لا تكاد تخرج عنه. فالفكر الصوفي في الرواية صوت كباقي الأصوات الشعبية والسياسية والدينية تتضافر لتشكل النص الروائي، أما الكاتب، فينسق بين تلك الأصوات واللغات عبر السارد، ويشير عبد الملك مرتاض إلى التعدد الصوتي ويربطه بالشخصية الروائية ويرى أن الشخصية الروائية تتعدد بتعدد الأهواء والمذاهب والإيديولوجيات والثقافات والحضارات ... ويستشهد ببالزاك balzaq الذي حاول أن يجعل رواياته مرايا تعكس طبائع الناس في المجتمع الذي يكتب عنه[13]. ولاشك إن الشخصيات هي مكمن التعدد الصوتي بفكرها وفلسفتها وعقيدتها وتاريخها.

ونجد الفكر الديني الصوفي في ثنايا الروايات الاجتماعية العربية بكثرة، ويحتل فسحات واسعة منها، إن من خلال الشخصيات أو السارد أو عبر صوت الكاتب بصفة غير معلنة تماما. ورغم تداخل صوت الصوفي الحر مع الصوت الديني، إلا أن للشخصية الصوفية دلالات محددة وخصوصيات ظاهرة

ومصطلحات متميزة. فغالبا ما يجعل الروائي هذه الشخصيات مترددة على الزوايا والأضرحة، ويجعلها تمارس طقوسا معينة، وترتدي ألبسة خاصة، وتردد أشعارا معينة لشيوخهم دون غيرها.

ويشير حبار مختار أن التصوف وشعره وأدبه قد بدأ يسيرا، ثم انتشر وعم البلاد مع بداية انتشار الطرق الصوفية وزواياها، ووصل حضورهما في الحياة الثقافية والاجتماعية وحتى السياسة[14]. وهذا ما يعكسه الخطاب الروائي بامتياز.

فنجد في (عين التينة) قول السارد:" ومع ذلك، فأنا لا أزال أرسلك إلى أستاذ الفلسفة وشيخ التصوف، وفقيه العربية لتكون أديبا متألقا، وفي الوقت نفسه مفكرا لامعا"[15]. وهذا الصوت يحضر بقوة في الرواية الجزائرية المعاصرة، و يظهر إن السارد يروج لهذا التيار الديني ويحاول جعل شيخ التصوف مرجعا مهما في صناعة الشخصية الاجتماعية.

ونجد في موضع آخر قول إحدى الشخصيات: " الثقافة الصوفية تفضي إلى تعويد النفس على الإشراق الروحي، حملها على الصبر والقناعة، وإلزامها بالمحبة والفناء في ذات الله تعالى، حتى ترقى في مقامات التأمل، ومراقي العرفان والاستمتاع بجمال الله العظيم الذي يملأ الكون"[16].

فالشخصية السردية تخبر عن بعض تعاليم الصوفية، وتمدح هذه الفرقة وتشيد ببعض خصالها، وكأن الروائي عبر هذه الشخصية يدعو ولو بطريقة غير معلنة إلى هذا التيار الديني، ويبدي إعجابه به، إن لم يكن صوفيا بكيفية ما. وقد ظهرت في قول الشخصية بعض مصطلحات الصوفية ومنها، التأمل والعرفان، والإشراق الروحي وغيرها. ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات (عين التينة)، ورواية(حفيد المنفي) من أثر الصوفية.

ونجد السارد في (حفيد المنفي) يجسد هذا الطرح بامتياز وذلك من خلال قول الكاتب على لسان السارد: "منذ تلك الأيام أحب بصافي شيخه الذي كان ينشد المنظومات الصوفية والقصائد الدينية، أو يقرأ القرآن الكريم بطريقة الشرقي... كان الرجل حريصا على حضور مجالسه، محبا لمشايخ الزوايا والكتاتيب، مهتما بسيرهم"[17].

فالروائي يعلن حبه وانغماسه في الصوفية، أو يتحدث عن عامة الناس بألسنة شخصياته؛ وهو يخبر عن بعض طقوس هذا المذهب، الذي أضحى صوتا روائيا، قد يؤثر في القارئ ويدفعه لحب هذا المذهب الديني، خصوصا لما جعل شخصية (بصافي)، تؤدي هذا الدور وهي بطلة القصة. فاسم

الشخصية يرتبط بالصوفية، إذ تدل على الصفاء والنقاء، وهو شعار المذهب الصوفي. وغالبا ما ترتبط الصوفية بأولياء الله الصالحين، وبالزوايا، ويتخذ من الزوايا مكانا للعلم، ومن الخلوة فضاء للتأمل والتعبد. فهذا الصوت الديني (الصوفية)، صوت روائي مهم في السرد القصصي، يوظفه الكاتب لنشر هذا المذهب، وتزيينه في نفوس القراء، وهو يشير إلى كراماتهم ومشايخهم، ومعتقدهم وكيفية ممارسة عبادتهم. ومن أمثلة الأصوات الروائية التي تشير إلى هذا المذهب وتبدي إعجابها به قول السارد: " كان صاحب الكتاب ذا شخصية قوية ... كان يفرض احترامه على كل الناس، إذ كان يرتدي بدلة عربية (تستيفة)، وقميصا أبيض وعباءة فضفاضة بيضاء ويضع عليها جلابة الوبر والبرنس الأبيض... ويعتمر شاشية صوفية"[18].

ويشير قول السارد إلى هيئة رجال التصوف ولباسهم، ويبدي الإعجاب بشخصياتهم وعلمهم ولباسهم الصوفي، فهذا الوصف الخارجي غالبا ما يميز المتصوفة عن غيره. ولاشك أن هدف الروائي هو إعلاء هذا الصوت الديني على كل الأصوات الروائية لغاية في نفس الكاتب؛ فهو يجسد حضوره ويجعله استلزاما للوقائع السياسية والاجتماعية المتغيرة، فيغدو مذهب التصوف صوتا حاضرا بقوة في الخطاب الروائي الجزائري.

4. صوت المرأة والدعوة للتحرر الاجتماعي:

يمثل صوت المرأة صوتا مهما في الخطاب الروائي الذي يعكس القيم الاجتماعية، وما يصاحبها من أفكار وآراء تدعو إلى التحرر. ويعمد الكثير من الروائيين إلى التعبير عن آراء المرأة، ويجعلون من بعض الشخصيات سبيلا إلى ذلك. والواقع، إن ثمة نقاش فلسفي مع آخر سوسيولوجي، وكل منهما يبحث ويحلل الأسباب التي أدت إلى اغتصاب حقوق المرأة.

وقد أصبحت المرأة تيمة مهمة في أغلب الخطابات العربية والجزائرية المعاصرة، ويسعى الروائي عبر السارد إلى تمرير الكثير من أصواتها من خلال السرد القصصي. فشخصيات المرأة تؤدي الكثير من الأدوار، فأحيانا تؤدي دور المرأة الثورية والمجاهدة، والطبيبة والمعلمة كما في روايات محمد مفلاح.

وأحيانا تنادي بأفكار تحررية كما في رواية (غفلة مقدام)، حيث تمثل شخصية (صفية) صوت المرأة المتحررة، المتمردة على أعراف المجتمع؛ حيث تعمل وتقود السيارة وتشارك في رفع صوت المرأة، وتدعو إلى التحرر من قبضة المجتمع. وتمارس حياتها الطبيعية دون أي اعتبار للعائلة أو المجتمع. وربما تهدف إلى تغيير بعض أعراف المجتمع، وكسر بعض قيوده الصارمة. ومن أمثلة ذلك قول السارد:

" تحولت صفية إلى فتاة متمردة كارهة للزواج بعد خيانة معشوقها الطبيب أنيس، صارت ناقمة على الذكور...كانت تنتقد التراث الذي أنتجوه لتكبيل حرية الأنثى، كما افضت لي ببعض أفكارها حول العقائد فحذرتها من نشرها في الفيسبوك..."[19].

فهذا الصوت الروائي لشخصية صفية يكشف عن طائفة من أفراد المجتمع من النساء أصبحن يرفضن الزواج؛ رغم أن الإسلام يدعو إلى هذا، وصرن أعداء للرجال، رافضات لتعاليم الإسلام بحجة البحث عن الحرية المطلقة، وأغلبهن متأثرات بالفكر الغربي الذي يعتبر العقيدة مجرد ظاهرة اجتماعية.

وقد وظف الروائي صوتا آخر مضادا للصوت المتمرد على العقيدة، هو صوت شخصية السارد (فريد مقدام)، الذي يمثل الصوت الديني الصوفي؛ حيث عبر عن رفض أفكار صفية بطريقة غير معلنة قائلا: " توضأت، وأديت صلاة العشاء والشفع والوتر، وقمت. تذكرت علي الماحي الذي كان يعطف علي كثير، ويرى بأنني في حاجة إلى شيخ يرشدني... تعالى إلى الزاوية وسترى العجب على يد الشيخ سيدي زروق"[20].

فهذا الصوت يجابه الصوت الرافض للعقيدة؛ إنه يجسد فرائض الدين حيث بينت الشخصية أهمية الصلاة في وقتها، حيث أدت صلاة العشاء، كما بينت أهمية تعلم الدين من شيخ الزاوية، وقد يكون هذا الصوت صوت الصوفية الذي يترصد دعاة الحرية المطلقة للمرأة و الرافضة لعقيدة الدين الإسلامي.

5. صوت الشاعر عبر الرواية:

رغم اختلاف جنس الشعر عن جنس الرواية، إلا أن فن الرواية رحب شاسع يتسع لشتى الأفكار. وهو يوظف الشعر لغرض الاستشهاد والحجاج أثناء تفاعل الشخصيات في الرواية، ويقصد من هذا توجيه خطاب إلى متلق لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة[21]. ويكون هذا في الحياة الاجتماعية بين المتكلمين كما يكون في الخطاب الروائي من خلال كلام الشخصيات، و يجعل الكاتب من فن الشعر لغة خاصة وصوتا روائيا فاعلا داخل المحكي.

ويشير جيرار جينات إلى نوع من السرد هو السرد المحض وفيه يتكلم الشاعر أو الراوي ويقدم الحكاية خالصة...سواء تعلق الأمر بأقوال الشخصيات أو بالخضوع لسيطرة الواقع أو النزوع إلى تمثيله[22]. ويفهم من هذا القول إن الشعر داخل المتن الروائي هو صوت روائي بامتياز؛ لأن الكاتب يستشهد به ويوظفه ويحتج به من أجل إقناع القارئ، لأن الشعر أحد أهم أساليب الحجاج والإقناع، والكثير من الروائيين المعاصرين يعمدون إلى إقامة حوار مع الشعراء وتوظيف أشعارهم التي تعبر عن أصواتهم وأفكارهم

ومعتقدهم وفلسفتهم في الحياة؛ بل وتعبر عن حكمهم ومواقفهم المختلفة. ويحتل الشعر فسحة واسعة في الخطاب الروائي العربي المعاصر، وجعله وسيلة مهمة لإقناع متلقي النص بفكرة معينة أو تعليمه قيمة اجتماعية أو حكمة أو نفي معتقد ما ودحضه. فالرواية دون غيرها من الأنواع الأدبية تتسع لأنماط متعددة من اللغات، ومنها لغة الشعراء الذين تختلف موضوعاتهم؛ وكل يعبر عن موضوع معين.

ومن بين ألاف الأشعار يختار طائفة قليلة منها؛ لأنها تخدم فكره، وتمكنه من عرض رأي الشاعر على سبيل الاستدلال والاحتجاج؛ فهدفه إقناع القارئ، وجعله يقبل رأيه عن قناعة.

ومن أمثلة ذلك قول السارد: " استسلموا لحالة تشاؤم غريبة، لا شئ أصبح يعجبهم في مجتمعهم، ثم شرعت في كتابة بيت شعري لأبي العلاء المعري وهو:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة **** ويا نفس جدي إن دهرك هازل**

لا أعلم بالضبط لماذا خطر ببالي هذا البيت الشعري...ربما لمخاوفي من حياتي القادمة".

ويبين هذا البيت الشعري الحالة النفسية المتردية التي وصل إليها السارد أو بطله (فريد مقدام)، و ما جعله يتمنى الموت عاجلا غير آجل كلما تذكر تسريحه من العمل بعد مرضه المفاجئ، وحالة الخلع التي تعرض لها من قبل زوجته التي تزوجت واستقرت بعنابة، أما هو فقد ظل يتجرع طعم الأحزان فكثرت مخاوفه وازدادت وساوسه.

ونجد السارد يورد أبياتا أخرى من قصيدة "المنفرجة" التراثية التي اختار منها مجموعة الأبيات جاءت من خلال قوله : " أنقذني الشيخ علي الماحي من الخواطر المحمومة لما طلب مني " طلب مني أن أجتهد في حفظ قصيدة "المنفرجة" ثم ألقى علي بعض أبياتها[23]:

اشتدي أزمة تنفرجي * قد آذن ليلك بالبلج**

وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج**

وسحاب الخير لها مطر ** فإذا جاء الإبان تجي ".

ويبدو إن السارد في هذه الرواية قد وظف صوت الشاعر ليتفاعل مع بقية الأصوات السردية، وهذا الصوت الشعري له عدة وظائف على مستوى السرد الروائي ومنها أنه يجسد حضور الشاعر القديم في الأدب الحديث والمعاصر. كما أنه يسهم في تخفيف المعاناة عن المحزونين والمتألمين، وبالإضافة إلى ذلك كله فهو يمثل التراث القديم ويستحضره بقوة؛ حيث يجعل من قول الشاعر حجة لغوية قوية تجعل السارد يقنع الشخصية بفكرة الصبر على الشدائد، فهي زائلة مهما اشتدت.

ونجد عبد الملك مرتاض، يوظف صوت الشاعر في خطاباته الروائية بكثرة؛ وفي كل مرة كان يجعله يمثل مجالا معينا، تارة يؤرخ به وتارة يجعله يستحضر بعض الشخصيات التراثية وهكذا. ويظهر في قول السارد وهو يتحدث عن بعض شخصياته : " تذكر الأبيات التي قالها الناسك مسكين الدارمي، تمثلا وتخيلا[24]:

قل للمليحة في الخمار الأسود: ماذا فعلت بناسك متعبد؟
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمّد "

ولاشك إن السارد قد استحضر هذه الشخصية التراثية، وهذه الأبيات الشعرية التي قيلت منذ ثلاث قرون، ليجعل من ذلك صوتا شعريا تراثيا نستحضره، ليصور حالته النفسية المتيمة، ويقارن بينها وبين شخصية الناسك الذي جاءته امرأة حسناء، أو تخيلها عندما شمر ثيابه للصلاة، وهم بالقيام بنسك العبادة، ويبدو إنه يريد أن يقول بأن الرجل مطالب بغض البصر وطرد الأفكار الشيطانية خصوصا أثناء العبادة.

وتذكر السارد هذه الحادثة القديمة؛ لأنه كان في أرض منقطعة عن البشر قرب ضريح لولي صالح، فرأى امرأة جميلة تزور الضريح، ولم تصدق عيناه ما رأى فاستحضر القصة القديمة التي تتشابه في العبادة والنسك وجمال المرأة. لكن عبر هذا الأمر يرسل السارد صوتا مؤداه أن المرأة تفتن الرجل، وعليه أن يغض الطرف عنها حتى لا تفسد عنه العبادة.

6. صوت الشخصية الفرونكوفونية الإيديولوجية:

وهذا النوع من الشخصيات كثير في الروايات الحديثة والمعاصرة؛ فقد تعبر عن حبها للاستعمار وسياسته الإمبريالية، وكما تمجد هذه الشخصية اللغة الفرنسية، وتفضلها، وتحب قراءة الجرائد والكتب باللغة الفرنسية، وتتحدث عن الشخصيات الغربية. وأحيانا تزدري اللغة العربية وتقلل من شأن المتكلمين بها.

وهذا الصوت يعبر عن تيار كامل موجود في المجتمعات العربية ويتعاطى الأحداث السياسية، ولا يؤمن إلا بالسياسة الغربية والفرنسية. ومن المقاطع الروائية التي تجسد هذا الصوت بامتياز قول السارد: " رأيت قادة الناسي قابعا تحت شجرة الفيكوس ... ينتمي الرجل إلى الجيل الذي لا يحسن إلا اللغة الفرنسية إذ كان يطالع جريدة ذات ميول ليبرالية ثم يشرع في قراءة روايات الجيب جلها لأدباء مشاهير

منهم مكسيم جوركي، وجاك لندن ووجون أشتنباك... وينتقد بشدة المجتمع الذي لم يعد مهتما بالقيم والمبادئ التي آمن بها وهو ورفاقه في عهد الرئيس هواري بومدين... يهوى الحديث عن الشؤون السياسية، والقضايا الفكرية... لا يمل من القراءة والجدال السياسي"[25].

ويبدو من هذا الصوت أنه يدخل ضمن الجدال الروائي، وضمن حلبة الصراع مع بقية الأصوات الديني، وصوت المرأة و وصوت الصوفي وغير ذلك. وهو بوق للاستعمار الفرنسي؛ حيث يحب لغته ويفتتن بها ويقرأ بها لمشاهير الروائيين الغربيين، كما إنه يهتم بالقضايا الفكرية والسياسية خصوصا، ويؤمن بسياسة المشاهير خصوصا من الاشتراكيين مثل هواري بومدين، وكارل ماركس وماوتسي تونغ وغيرهم كثير.

وتأسيسا على ما تقدم يتضح لنا إن الرواية نص أدبي كبير يجمع مختلف الأصوات، ويمكنها من التداخل والصراع، وكل منها يمثل ايديولوجية معينة وفلسفة ما وعقيدة مختلفة وتيارا ما. وغالبا ما تتصارع هذه الأصوات، وينتصر فيها الكاتب لرأي معين يمثل معتقده وايديولوجيته، وما يفكر به. وفي هذا يقول (باختين) بأن التعدد اللغوي في الرواية ينجم عن استحضار خطاب الآخر وقد يتمثل في أجناس الأدب المختلفة من شعر وأمثال، ورسائل وحكم وغير ذلك[26].

وهذا معناه أن الرواية مركبة من هذه الأجناس وكل منها يمثل صوتا معينا ولغة مختلفة، وقد يكمل بعضها بعضا كما قد تتعارض هذه الاصوات بشدة، خصوصا في الجانب الفكري والديني والسياسي.

7. الصوت الاجتماعي:

1.7صوت الفرد المسحوق اجتماعيا:

لا يكاد يخلو صوت روائي جزائري واحد من صوت اجتماعي؛ يتمثل في التعبير عن فئة اجتماعية مسحوقة من المعذبين في الأرض بسبب الفقر المدقع والمرض الفتاك أو بسبب الإعاقة أو الطرد من العمل أو بسبب الادمان والطلاق والترمل وغير ذلك كثير من الآفات الاجتماعية التي ألمت بالمجتمع الجزائري، فعبر عنها الروائيون الجزائريون أحسن تعبير عسى أن يخففوا من معاناتهم أو يشخصوا هذه الآفات.

ومن بين ذلك نذكر شخصية في رواية (غفلة مقدام) لمحمد مفلاح الذي عانى من انفصاله عن زوجته قهرا، وطرده من العمل وأخذ حقوقه وغير ذلك؛ حيث عبر السارد عن ذلك قائلا: "لم يكن

الدكتور جمال يعلم بأنني رجل مخلوع تعرض مؤخرا إلى نوبة قلبية، وقد أبعدني المدير العام عن منصب عملي، وأنا اليوم أعيش مع أختي عالة على صفية يا رب العالمين..."[27].

ويكشف هذا الصوت الروائي عن مجموعة من الأفراد المسحوقين في المجتمع، وينطق باسمهم، ويعبر عنهم، وهو أن السارد (فريد مقدام) أحد هؤلاء؛ تعرض لأزمة نفسية حادة بعدما خلعته زوجته بسبب المشاكل الاجتماعية، ومرض مرضا شديدا، وطرد من عمله ظلما. و هذا الصوت وظفه الروائي لنقد المجتمع ومؤسسات الدولة، كما يعبر عن الفقراء والمظلومين.

8. الخاتمة:

لتعدد الأصوات واللغات في الخطابات الروائية وظائف كثيرة نذكر منها:

- تمكين الشخصيات السردية من التعبير عن آرائها وأفكارها بكل حرية، خصوصا لما يوكل إليها المؤلف بعض الأدوار فتؤديها أحسن أداء، وتعبر عن آرائه ومواقفه المختلفة، وتصدح بأفكاره.
- يجعل الروائي الرواية حلبة حرة تتصارع فيها هذه الأصوات، وتعبر عن مواقفها الكثيرة وفلسفاتها وإيديولوجياتها المختلفة، مما يؤدي إلى توضيح الرؤية للمتلقي، وتمكينه من تعزيز مواقفه والدفاع عنها، أثناء تأدية الحدث السردي، وتمكينها من استعمال الحجج المختلفة لإقناع المتلقي، وجعله يصدق الآراء والأفكار خلال إثباتها أو دحضها.
- التعبير عن تباين الآراء والفلسفات والمواقف والأفكار و العقائد و ما ينجم عنها من
- توظيف أسلوب الحجاج أحسن توظيف، وجعل الشخصيات تدافع عن مواقفها المختلفة تفاعل أثناء الحدث.
- جعل الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي يكتسح الخطاب الروائي، ويجعل هذه الأصوات المختلفة تعبر عن ذواتها بكل حرية.

– تتعدد الأصوات في الأعمال الروائية بتعدد الشخصيات واختلافها في تفكيرها وفلسفتها وتاريخها ومعتقداتها.

- يحتاج التعدد الصوتي عبر الخطابات الروائية إلى أسلوب الحجاج؛ فأثناء التعبير عن أي رأي لابد من إقناع الأطراف الأخرى بالأدلة والبراهين.

الروائي أو الكاتب هو مهندس تعدد الأصوات عبر الرواية وهو في الأخير ينتصر لبعض الأصوات التي يريد هو، حيث تتوافق مع فكره واعتقاده.

هوامش:

[1]- محمد مفلاح: حفيد المنفي (رواية)، (2019)، دار القدس العربي وهران، الجزائر، ص106.

[2]- عبد الملك مرتاض، وشيء آخر...(رواية) دار القدس العربي، وهران الجزائر، 2018، ص144

[3]- رواية همس الرمادي، محمد مفلاح، دار الكتاب، الجزائر، 2013، ص:82، 83.

[4]- المرجع نفسه، ص76.

[5]- ابراهيم خليل: بنية النص الروائي، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، ص250.

[6]- أبو القاسم سعد الله ، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار الرائد للكتاب، ط5، الجزائر، 2007، ص22،21.

[7]- محمد مفلاح: حفيد المنفي، ص196، 197.

[8]- ميشال بوتور: بحوث في الزاوية الجديدة، (1986)، تر: فريد أنطونيوس عويدات، بيروت، ص4.

[9]- محمد مفلاح: حفيد المنفي، ص35.

[10]- المرجع نفسه، ص58، 59.

[11]- عبير حسن علام: شعرية السرد وسيميائيته، (2012)، دار الحوار، ط2، اللاذقية، ص19.

[12]- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، (2009)، تر: محمد برادة، رؤية النشر والتوزيع، ط1، القاهرة، ص32.

[13]- ينظرعبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2005، ص107.

[14]- حبار مختار: الشعر الصوفي القديم في الجزائر، (2010)، منشورات الخطاب الأدبي في الجزائر، دار القدس، ص5.

[15]- عبد المالك مرتاض: عين التينة، (2019)، دار القدس وهران، الجزائر، ص97.

[16]- الرجع نفسه، ص 96.

[17]- محمد مفلاح: حفيد المنفي، ص55، 56.

[18]- المرجع نفسه، ص54.

[19]- محمد مفلاح: غفلة مقدام، (2017)، دار القدس العربي وهران، الجزائر، ص53.

[20]- المرجع نفسه، ص53.

[21]- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج40، ص11.

[22]- ينظر معجم السرديات، محمد القاضي ومجموعة من المؤلفين، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، تونس، لبنان، 2010، ص278.

[23]- محمد مفلاح: غفلة مقدام، ص17.

[24]- عبد المالك مرتاض: عين التينة، ص81.

[25]- محمد مفلاح: غفلة مقدام، ص16.

[26]- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص32.

[27]- محمد مفلاح: غفلة مقدام، ص67.